مجلة "آفاق فكرية"

ص. ص. 256 - 276

رت م د: 2353 - 0367

رت م د إ: 2602-5507

شبكة العلاقات الاجتماعية وعلاقتها بالاستقرار الاجتماعي للتاجر المزابي في منطقة الغرب الجزائري (دراسة ميدانية بخمسة مدن)

The network of social relations and itsrelationship to the social stability of the Mozabite merchant in the western Algerian region (A fieldstudy in five cities)

طا. با. لطروش بلقاسم [1*]، الهواري بوزيدي [2]

[1] جامعة وهران2 محمد بن احمد (الجزائر)، مخبر تطور، حضارة وسياسة، jepense84@gmail.com

[2] جامعة وهران2 محمد بن احمد (الجزائر)، bouzidi.lahouari@univ-oran2.dz

تاريخ الاستلام: 19-01-2024 تاريخ القبول: 11-04-2024 تاريخ النشر: 05-05-2024

ملخص:

يهدف هذا البحث إلى معرفة واقع شبكة العلاقات الاجتماعية للتاجر المزابي من خلال الأبعاد الاجتماعية التالية: علاقة الصداقة وعلاقة الجيرة وتبادل الزيارات والهدايا، كما يسعى هذا البحث إلى التعرف أكثر على استعدادات التاجر المزابي للتواصل مع المحلي. لقد استخدمنا المنهج الكمي من أجل قياس أبعاد متغير العلاقات الاجتماعية، ولجمع المعطيات وظفنا أداة الاستمارة والمقابلة (رؤساء الجماعات) في حين تمثلت عينة الدراسة في التجار بمنطقة الغرب الجزائري في خمس مدن (مستغانم، غليزان، معسكر، سيدي بلعباس وتيارت) وعددها 100 تاجر، تم اختيارهم بطريقة عشوائية.

من أهم النتائج المتحصل عليها وجود علاقات جيرة ممتازة بين التاجر والرجل المحلي، كما أن التاجر يملك حجم علاقات صداقة كبير جدا في الغرب الجزائري. وأكثر من هذا هناك علاقات تبادل بين التاجر والآخر في الزيارات والهدايا.

كلمات مفتاحية: شبكة العلاقات الاجتماعية؛ بني ميزاب؛ التواصل؛ الجيرة؛ الاندماج الاجتماعي.

Abstract :

This research aims to know the reality of the social network of the Mozabite merchant through the following social dimensions: the relationship of friendship, the relationship of neighborliness, the exchange of visits and gifts, and this research seeks to learn more about the preparations of the Mozabite merchant to communicate with the local. We used the quantitative approach in order to measure the dimensions of the variable of social relations, and to collect data we employed the questionnaire and interview tool (heads of groups), while the study sample was represented in the merchants in the western Algerian region in five cities and the number of 100 merchants, werer and omly selected.

One of the most important results obtained is the existence of excellent neighborly relations between the merchant and the local man, and the merchant has a very large volume of friendship relations in the Algerian west. What's more, there are reciprocal relationships between the merchant and the other in visits and gifts.

Keywords: Social network, Beni m'zab, Communication, Neighborhood, Social integration.

* المؤلف المرسل.

مقدمة:

إن التحولات التي شهدتها المدينة الأوروبية خلال القرن 19 دفعت بعلم الاجتماع في بداية القرن 20 للاهتمام بالماكروسوسيولوجي الذي تمثل في الإدارة والتصنيع وأثر هذا الأخير على تحولات المدينة مرفولوجيا ووظيفيا، وهي نفس التحولات التي تعرضت لها المدينة العربية بفعل التحديث بعد حركة التحرر. لكن الميكروسوسيولوجيا في الواقع العربي تبدو أكثر اتجاه علمي ملائم للدراسات في علم الاجتماع بسبب انتشار البنى الاجتماعية التقليدية (العشائر، العروش، القبيلة) في المجتمعات المغاربية على وجه الخصوص؛ حيث تنتج لنا هذه البنيات المؤطّرة داخليا وتحت وصاية الأعيان ممارسات اجتماعية متباينة بين الجماعات الاجتماعية في المجتمع.

في هذا السياق تتعايش في المجتمع الجزائري جماعات اجتماعية متنوعة هي: الزواوة، العرب، الشاوية، الطوارق، وبني ميزاب. أي باحث في علم الاجتماع سيميز أن لكل جماعة نظام اجتماعي خاص بها، وقد تفرد بني ميزاب في التنظيم الاجتماعي وفي فنون التجارة كمورد اقتصادي للخروج من الانغلاق الاقتصادي واضطراب النسق الاجتماعي الذي عاشوه قبل القرن 16م. حيث شكلت مدن الشمال بما فيها المدن الداخلية والساحلية أنها سوق اقتصادية كبيرة مفتوحة للاستهلاك التجاري، مما جعل واد ميزاب ورشة كبيرة لتسيير المورد البشري وتأهيله للمجال التجاري خارج واد ميزاب، في حين شكلت مدن الشمال فضاء للرأس المال المهدور الذي يجب استغلاله واحتكاره من خلال خلق رأس مال اجتماعي واسع مع الرجل المحلي.

شكّلت شبكة العلاقات الاجتماعية أهم الروافد الأساسية للرأس مال الاجتماعي للتاجر المزابي وموردا اقتصاديا من أجل بسط المجال التجاري المزابي من جهة وتحقيق استقرار اجتماعي من جهة أخرى، ومن ثم اندماج اجتماعي في مدن الغرب الجزائري كمنطقة جذب له.

لم يكن التواجد الطويل والكبير لبني ميزاب في هذه المنطقة إلاّ بالفهم العميق لإشكالية التواصل بل والتحكم فيه مع الآخر؛ حيث كان المزابيين يرسلون تاجرا خبيرا منهم مهمته تفقد وتشخيص المدن الجديدة للهجرة إليها ومزاولة النشاط التجاري هناك ويعود بقرار إمكانية الهجرة أو البحث عن سوق تجارية أخرى، كما كانت مهمة هذا الخبير معرفة أنواع التجارة المنتشرة في المدينة المقصود الهجرة إليها. وبهذه الإستراتيجية التجارية استطاع بنو ميزاب فهم ثقافة الاستهلاك وأساليب الاتصال لسكان مدن الغرب الجزائري.

1. الإطار المنهجي للدراسة:

1.1. إشكالية الدراسة:

تشتهر الجماعة المزابية (الأباضية) في المجتمع الجزائري بالنشاط التجاري ويطلق على أفرادها (التجار) اسم المزابيين نسبة إلى المنطقة التي ينتمون إليها هؤلاء وادي ميزاب (بني مُصْعَبْ). حيث عرفت الجماعة المزابية هجرة مبكرة إلى مدينة العاصمة حتى قبيل دخول الأتراك الجزائر والاستفادة من الامتيازات التجارية بعد الاتفاق الذي حصل بين الطرفين، وبهذا الانفتاح على الآخر بعد الانغلاق الذي عاشته الجماعة على ذاتها في وادي ميزاب بسبب المذهب الأباضي أصبح للتجار المزابيين في مدن الشمال تحدي اجتماعي كبير لاستمرار تجارتهم بسب اختلاف مذهبها عن مذهب الأغلبية ومن ثم إشكالية اندماجها مع المجتمع الجديد الذي وفدت إليه.

بمرور الزمن استقرت الجماعة المزابية في كامل مناطق الجزائر بما فيها منطقة أقصى الجنوب الجزائري، وهذا الامتداد الجغرافي لتوسع المجال التجاري المزابي يدفع الباحثين للتساؤل عن سر قوّة النشاط التجاري لهذه الجماعة، حيث قد يرى البعض أنّ السبب يعود إلى الفنون التي يمتلكها المزابيون في التجارة عبر أجيال متواصلة، ولكن لدينا طرح سوسيولوجي آخر ينبع من المشاهدات اليومية لهذه الجماعة في منطقة الغرب الجزائري حيث تشكّل العلاقات الاجتماعية رأسمال اجتماعي حقيقي لاستمرار أي نشاط تجاري؛ إذْ تشمل شبكة العلاقات الاجتماعية علاقات الصداقة، وعلاقات الجيرة، وكذلك علاقات المصاهرة التي يمكن أن تساعد التاجر المزابي في تحقيق الاستقرار الاجتماعي بمدن الغرب الجزائري. وعليه نطرح السؤال العام للدراسة على النحو الآتي:

إلى أي مدى استطاع التاجر المزابي بشبكة علاقاته الاجتماعية أن يحقق استقرار اجتماعيا في منطقة الغرب الجزائري؟

1.1.1. التساؤلات الفرعية للدراسة:

- هل يساعد حجم علاقات الصداقة للتاجر المزابي في حل المشاكل التي تعترضه في وسط المدينة؟
- هل تساعد علاقات الجيرة الجيدة للتاجر المزابي في بناء شبكة علاقات اجتماعية مع المحلي؟

- هل تساهم عمليات تبادل الزيارات والهدايا بين التاجر المزابي والمحلي في استمرار العلاقة الاجتماعية بينهما؟

والهدف العام من هذا البحث السوسيو اتصالي هو دراسة علاقة متغير شبكة العلاقات الاجتماعية في مساعدة تجار بني ميزاب على تحقيق الاستقرار الاجتماعي ومن ثم الاندماج أكثر في مدن الغرب الجزائري.

2.1. منهج الدراسة:

تندرج هذه الدراسة ضمن البحوث الكمية التي تسعى إلى قياس العلاقة بين متغيرات الظاهرة الاجتماعية، ومن ثم تحليلها إحصائيا حتى تصبح قابلة للقراءة. أما المنهج فهو المنهج الوصفي "يعتمد على وصف دقيق وتفصيلي لظاهرة أو موضوع محدد على صورة نوعية أو كمية رقمية. وقد يقتصر هذا المنهج على وضع قائم في فترة زمنية محددة أو تطوير يشمل فترات زمنية عدة". (عبيدات، 1999، ص.46)

لتجسيد هذا البحث الذي هو دراسة استطلاعية وصفية اعتمدنا على تفكيك متغيري الدراسة إلى ثلاثة أبعاد اجتماعية لكل متغير منهما على النحو الآتي: العلاقات الاجتماعية (علاقات الجيرة، علاقات الصداقة، تبادل الزيارات) أما متغير الاندماج الاجتماعي فشمل (المشاركة المجتمعية، المصاهرة، الانتماء الاجتماعي). وتم الاعتماد على أداتي الاستمارة والمقابلة لجمع المعطيات من الميدان ومن ثم تفريغها وتحليلها.

3.1. عينة الدراسة وأدواتها:

شملت عينة الدراسة التجار المزابيين الذين هم في نشاط دائم في منطقة الغرب وشملت 100 مفردة تم اختيارها بطريقة عشوائية؛ من خلال توزيع الاستمارات عن طريق كل رئيس جماعة لكل من المدن (مستغانم، غليزان، معسكر، سيدي بلعباس، تيارت) مع توظيف أداة المقابلة التي استخدمت مع رؤساء الجماعات من أجل معلومات أدق عن تاريخ العلاقات الاجتماعية بين المزابيين والآخر في الغرب الجزائري.

2. الإطار النظري للدراسة:

1.2. العلاقات الاجتماعية المفهوم والمقاربة السوسيولوجية:

1.1.2. شبكة العلاقات الاجتماعية التعريف الاصطلاحي والإجرائي:

اختلفت المدارس النظرية في تقديم تعريف دقيق للعلاقات الاجتماعية بسبب المبادئ والمفاهيم التي ترتكز عليها؛ حيث يعرّف ألفريد رادكليف براون (ALFRED Radcliffe-Brown) الذي ينتمي إلى النظرية البنائية الوظيفية العلاقات الاجتماعية بأنّها تقوم على التفاعلات بين الناس وتأخذ سياقات مختلفة منها الدائمة، المؤقتة، السلمية، والعدائية، التعاونية ومنها التنافسية، والعلاقات بين الأفراد لا يمكن أن تقوم وتستقر إلاّ في حالة إشغال هؤلاء الأفراد لأدوار مختلفة. (زيدان خلف الجبوري، 2006، ص.15) أمّا ماكس فيبر (MAX Weber) يرى "أنّ العلاقة الاجتماعية تعتبر موضوعيًا ثنائية الجانب بطبيعة الحال بالقدر الذي يتوافق فيه محتوى المعنى -تبعًا لمتوسط توقعات كل طرف من المشاركين-؛ معنى هذا أن العلاقات الاجتماعية التي تقوم على تصور متبادل ومتطابق في المعنى بصورة تامة وكاملة لا تحدث في الواقع إلاّ بصفة استثنائية فقط". (ماكس، 2011، ص.57) يشير ها التعريف بوجود طرفين للتواصل مع توافق كبير في محتوى المعنى، غير أنّه ليس كل علاقة ثنائية تكون متوافقة وتتحقق في الواقع فقد ينتج عنها صراع وتنافس بين الأطراف على مستوى الجماعات أو الفئات الاجتماعية.

في حين يرى أنصار التفاعلية الرمزية أنّ العلاقات الاجتماعية هي "ذلك الكل المركب الذي يحتوي على العلاقات الاقتصادية، علاقات القوة والسلطة وكذلك علاقات المعنى: فكل هذه العلاقات مجتمعة تعمل على تحديد العلاقات الاجتماعية". (حمدوش، 2009، ص.55)؛ بمعنى العلاقات الاجتماعية لها دلالة القوة والتأثير في المجتمع نظرا لخاصية الجذب التي تتمتع بها لدى الأفراد، وتزداد هذه القوة في علاقات المعنى التي ستحدد طبيعة العلاقة بين الأطراف فالعلاقات التجارية هي غير العلاقات الثقافية وغير علاقات المذاهب والفرق الدينية، وهذه العلاقات عمادها شبكة العلاقات الاجتماعية التي نسجها أفراد في وسط اجتماعي ما فيما بينهم. ومنه فإنّ العلاقات الاجتماعية تغطي الجوانب التالية: الشبكة الاجتماعية، الدعم الاجتماعي، الاندماج أو الانتماء، المشاركة المجتمعية...الخ". (Samia, 2008, p.34)

أما إجرائيا فنقصد بشبكة العلاقات الاجتماعية مجموع علاقات الجيرة والصداقة وعلاقات تبادل الهدايا والزيارات بين الرجل المحلّي والتاجر المزابي التي يسعى من خلالها هذا الأخير في تشكيلها بهدف تحقيق استقرار اجتماعي من أجل استمرار نشاطه التجاري في مدن الغرب الجزائري.

2.1.2. نظرية علم الاجتماع الصوري حول العلاقات الاجتماعية:

نرى أنّ النظرية الشكلية هي الخلفية الأساسية لتحليل موضوع دراستنا حيث يعتقد جورج زيمل (GEORGE Simmel) أن علم الاجتماع يدرس مضمون وشكل العلاقات الاجتماعية كالعلاقات التعاونية والعلاقات التنافسية وعلاقات الصراع والعلاقات التوافقية والعلاقات المركزية، أمّا مضمون العلاقات الاجتماعية فهي المصالح والأغراض. "فهذه الثنائيات الستة من التفاعلات الاجتماعية التي تسيطر على الجماعات والنظم والمؤسسات تعطيها طابعها المحدد الذي يرسم العلاقة أو التفاعل بين أفرادها، ومن ثم هذه الصورة التفاعلية للعلاقات هي التي تحدد نشاط الجماعة وإنتاجيتها أو بين قيادتها وقدرتها على تحقيق الأهداف المرسومة". (زريبي، 2013، ص.253)

سنعتمد في فهم وتحليل العلاقات الاجتماعية بين المزابيين والآخر على ثنائية الصراع مقابل الوفاق وهذا نظرا لارتباطهما مباشرة بمجتمع دراستنا، أي جماعة تجار بني ميزاب وشبكة علاقتها الاجتماعية في مدن الغرب الجزائري. فعلاقات الصراع في نظر جورج زيمل هي العلاقات التي تدور حول رغبة كل طرف من الأطراف في القضاء على الآخر وإخراجه من حلبة الصراع وفرض إرادة الطرف القوي عليه إلى أن يستسلم ويذعن للطرف الآخر. وتعود أسباب علاقات الصراع التفاعلية إلى الأسباب الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والعسكرية. أما العلاقات التفاعلية التوافقية التي تقوم على التفاهم والتوافق، فهي مبنية على المرونة والديمقراطية ذلك أن كل طرف يتداخل ويتفاهم مع الآخر بطريقة عقلانية يؤدي إلى انجذاب الأفراد نحو بعضهم البعض وتكون علاقاتهم توافقية. (زريبي،2013، ص.254)

أما ثنائية الصراع والوفاق فقد كانت الجماعة المزابية في الجزائر من الجماعات الاجتماعية الأكثر تجربة في عمليات الصراع الاجتماعي داخل غرداية بين المزابيين والآخر منذ القرن الرابع عشر إلى غاية 2013، حيث كان يسعى كل طرف فرض نفسه على الآخر لأسباب مختلفة، وهو ما أثر بطريقة مباشرة على العلاقات الاجتماعية بين المزابيين والآخر ونتج عنه تفاعل اجتماعي سلبي بين الطرفين كما شكّل هذا الصراع تمثل اجتماعي نحو الآخر عبر الأجيال المتعاقبة في مدينة غرداية. غير أن هذا

الصراع بمجرد خروج المزابيين خارج غرداية لممارسة التجارة يختفي باختفاء الطرف الثاني وبالتالي تعامل التجار المزابيين مع فاعلين، جدد مما يتطلب الأمر ضرورة التوافق الاجتماعي مع المحلّي في مدن الغرب الجزائري، وهذا الأسلوب الجديد في التعامل حتما سَيُنْتِجْ تجاذبا اجتماعيا بين التاجر المزابي والرجل المحلّي في مدن الدراسة. وفي هذا الصدد تقول أمالي قوا شون (AMELIE MARIE goichon): نجد كل ميزابي لديه تجارة في منطقة التل يقوم بممارسة التجارة في الشمال لشهور عديدة بل حتى سنوات ثم يعود إلى وادي ميزاب بعد أن جمع ثروة مالية معتبرة، وهنا يحصل على راحة تدوم ستة أشهر ليعود إلى الشمال من جديد. (Amélie, 1927, p.14)

من النقاط الايجابية التي تم رصدها من الميدان تأكيد بعض التجار خلال دراستهم في الجامعة في الغرب الجزائري أنهم وجدوا توافقا اجتماعيا مع المحلي، حيث يصرح تاجر من مستغانم " أنا قريت هنا وفي نفس الوقت كنت نخدم التجارة وكي كملت وتخرجت وجدت نفسي نعرف التجارة فقررت العيش في هذه المدينة المسالمة، صراحة نحس روحي مليح". إن فترة الإقامة المؤقتة للمزابي خلال دراسته في مدن الغرب الجزائري سمح له، خاصة المجال التجاري، بالتعرف أكثر على خصوصية المجتمع المستقبل له والاحتكاك بأفراده، بالإضافة إلى شبكة العلاقات الاجتماعية التي نسجها ولم يستطع الاستغناء عنها والتي ستساعده في تطوير تجارته هناك.

3. الإطار الميداني للدراسة:

1.3. شبكة العلاقات الاجتماعية وعلاقتها باستقرار التاجر المزابي في منطقة الغرب الجزائري:

جدول 1

طبيعة علاقات الجوار بين التاجر المزابي وجاره المحلّي

طبيعة العلاقات الاجتماعية	التكرار	%
علاقات ضعيفة	--	--
علاقات جيدة	31	31
علاقات ممتازة	69	69
المجموع	100	100

المصدر: نتائج البحث الميداني

تشير علاقات الجيرة الجيدة إلى تلك العلاقات التي تشمل علاقات الاحترام وتبادل أطراف الحديث بين أفراد الحي في حين العلاقات الممتازة فهي تلك العلاقات التي ترتقي إلى التعاون والتضامن والحفاظ على مصلحة العامة للمتجاورين، وهاتين العلاقتين قد صرح بها أفراد الدراسة كما هو مبين

أعلاه في النسب في حين غابت علاقات الجيرة الضعيفة التي تشير إلى وجود خصومات وحالات التعصب والشتم بين التاجر المزابي وجاره المحلي في الغرب الجزائري.

الجيرة هي مظهر من مظاهر التواصل الاجتماعي بين المتجاورين في مدن الغرب الجزائري؛ فكلّما كانت الجيرة سيئة كلما كانت العلاقات الاجتماعية سلبية ومضرة بالمصلحة العامة لساكني الحي أو العمارة، فتقلصت شبكة العلاقات الاجتماعية لكلا المتجاورين وبالتالي زيادة مساحة المسافة الاجتماعية بين الأفراد. في حين كلما كانت علاقات الجوار جيدة وممتازة كلما ساعد هذا على بروز الوعي الجمعي بين قاطني الحي وانتشار الاتصال الاجتماعي بسبب تقلص مساحة الصراع الاجتماعي وحدوث التجاذب والتماسك الاجتماعي بين الجيران، وبالتالي العلاقات الاجتماعية بين التاجر المزابي والجار المحلي (الجماعة المزابية) هي علاقات اجتماعية إيجابية "التي تؤدي إلى حفظ بناء الجماعة والعمل على بقائها ودوام استقرارها والتي يجب أن تكون قائمة في كل مؤسسة اجتماعية. كما أنها تساهم في وحدة وتماسك المجتمع ومن بينها العلاقات الاجتماعية التعاونية، التي تعتبر سعي مشترك للوصول إلى هدف مشترك وكذا علاقات الصداقة القائمة على الإخلاص والاتحاد والتوافق". (بركات، 2006، ص.82)

ومن خلال المعايشة اليومية للتجار المزابيين نرى أن الخصائص الجماعاتية للتاجر المزابي من ثقة بالنفس، الانضباط في العمل، الاعتماد على النفس، روح الجماعة والتضامن وتحقيق الأمانة قد ساعدته كثيرا في التكيف ومن ثم الاستقرار الدائم في مدن الغرب.

جدول 2

التاجر المزابي ومواجهة الحياة اليومية في المدينة

افتعال المشاكل	التكرار	%
دائما	--	--
أحيانا	40	40
أبدا	60	60
المجموع	100	100

المصدر: نتائج البحث الميداني

أكدت 60% من أعضاء الجماعة التجارية المزابية أنها ليست لديها أيّة مشاكل مع الجيران المحلّيين مقابل 40% من الأعضاء ممن أقروا أنهم أحيانا ما يتعرضون لمضايقات من قبل الجار المحلّي. رغم كل المشاكل في المدن الحضرية التي يقيم فيها التجار المزابيين إلاّ أنّهم صرّحوا بعبارات تدلّ على

تسامحهم من خلال تجاهل هذه المشاكل حتى لا تتأثر علاقاتهم مع جيرانهم المحلّيين، ومن العبارات هذه يقول مبحوث من ولاية معسكر: "إنهّا مشاكل تافهة"، في حين يصرّح تجّار ولاية مستغانم بالعبارات الآتية: "مشاكل بسيطة يمكن غض الطرف عنها"، وآخر قال "سوء تفاهم ليس إلاّ"، وتاجر آخر يصرح بأنها "مشاكل صغيرة يمكن تجاهلها".

إنّ هذه الصراحة يقابلها في الواقع ما لاحظناه في مختلف ولايات مجتمع الدراسة من خلال التواجد في المحل التجاري للتاجر المزابي، فمثلا في ولاية سيدي بلعباس وبحضورنا تقدمت زبونة (امرأة) لإعادة حفّاظ جلدي لطفل صغير منذ ثلاثة أيام فكان رد الشاب المزابي التبسم في وجهها قائلا لها" مكانش ما مشكل رانا هنا هاكي دراهمك"،" بمعني ليس لدي مانع يا أمّي وأنا في الخدمة، خذي مالك"، ومثال آخر في ولاية مستغانم لمّا وضع أحد الشبان من ولاية مستغانم سلعته أمام محل التاجر المزابي "كحل العيون"، وهذا يحدث بشكل متكرر، فما كان إلاّ قال لي التاجر "شاديرْلهمْ رانا نساعْفُوا"، بمعنى" ماذا يمكنني أن أفعل ما يتوجب علي هو أن أساير أفعالهم دون الحديث معهم"، وأمثلة أخرى وقفنا عليها في الولايات الأخرى، وهذا يوحي إلى إستراتيجية التزام الصمت مهما كانت المشاكل إلاّ الجرح المتعمد فلن يقبله المزابي كما حدثني بعضهم.

نرى أنّ هذه المواقف الاجتماعية (Attitudes Sociales) لبني ميزاب في مدن الغرب الجزائري اتجاه التصرفات السلبية للجار المحلي تشكّلت نتيجة التجربة الاجتماعية لجيل الجماعات التجارية المزابية السابقة التي تعرفت على الشخصية المحلية وكيفية التعامل معها في الفضاء الاجتماعي (Espace Social)، وهذا التصرف " ما نسميه "الهابيتوس (Habitus) "الذي يراه بيير بورديو (PIERRE Bourdieu) أنّه مجموع الاستعدادات الفطرية والمكتسبة والمتوارثة التي تعبر عن فاعلية الفرد من خلال توجيه سلوكه نحو الآخرين، بمعنى المهارة التي يملكها الأفراد في التعامل الجيد في المواقف الاجتماعية التي تعترضهم في أي مجال من مجالات الحياة الاجتماعية. وهذا ما يمكن إسقاطه على الجماعة المزابية من خلال التعامل الذكي (Intelligence Sociale) مع المواقف السلبية للرجل المحلي في مدن الغرب الجزائري من خلال التجاوز للعلاقات الاجتماعية السلبية التي تعرقل عملية اندماجه في المجتمع المستقبل له، وبالتالي يصبح موضع جذب للآخر (جار، زبون، صديق) في المجالين الاجتماعي والتجاري مما يجعله يحقق رأس مال اجتماعي قوي يستخدمه للسيطرة على المجال التجاري. (Champ commercial)

"يكون الشخص مندمجًا في المجتمع الجديد إذا كان يجيد لغة هذا المجتمع بقدر جيد ويحترم ثقافته ولا يتعاطى ممارسات سلوكية تتقاطع مع ثقافة هذا المجتمع، وأن يشارك مشاركة فعالة في الحياة اليومية بجوانبها الاجتماعية والإدارية والسياسية. وهي معادلة تتطلب تعاون طرفيها الوافد والمحلي الذي يشير إلى مقدار الاتصال بين الجماعات". (الهاشمي، 2008، ص.73)

2.3. علاقات الصداقة للتاجر المزابي في مدن الغرب الجزائري:

جدول 3

شبكة علاقات الصداقة للتاجر المزابي في المدينة

الصداقة	التكرار	%
نعم	98	98
لا	02	02
المجموع	100	100

المصدر: نتائج البحث الميداني

من خلال ما هو بارز في الجدول إن التاجر المزابي في منطقة الغرب الجزائري يملك علاقات صداقة تجمعه بالمحلّي، حيث يكون في الغالب صديق التاجر جار أو زبون أو حتى زميل الدراسة والعمل، فهذه الحقيقة الاجتماعية تحفز كثيرا التجّار المزابيين للإقبال على نسج علاقات اجتماعية جديدة مع المحلّي. تختلف علاقات الصداقة حسب السياق الزمني التي تشكلّت فيه، فقد أقرّ العديد من المبحوثين من خلال سؤال مفتوح كم من سنة وأنت ملازم لصداقته ؟، فكانت الإجابات أن صرّح البعض بأنها "منذ الطفولة" التي تشمل جماعة اللعب أو جماعة الدراسة، في حين أكدّ البعض من التجار أنها وليدة التفاعلات التجارية. وبالتالي تعكس هذه الإجابات مدى انسجام وتكيّف التاجر المزابي مع أفراد المجتمع في مدن الدراسة.

"تنطوي جماعات الأصدقاء من وجهة النظر السوسيولوجية على علاقات اجتماعية أكثر تعقيدا من علاقات القرابة الزمالة والجوار، حيث يقوم هذا النوع من الجماعات على الاختيار الحر من جانب الأفراد دون تدخل من عوامل خارجية، بل عادة ما تتم عملية الاختيار من مجالات أخرى تبتعد كثيرا عن مجال العمل أو القرابة أو الجيرة". (السيد، 1990، ص.323)

يملك التاجر المزابي في منطقة الغرب الجزائري حجم علاقات صداقة كبير حيث عبّر البعض منهم أنّه تربطهم علاقات صداقة تفوق عشرة أصدقاء بنسبة 44.8% مقابل 40.6% من التجّار الذين أقروا بأنّ شبكة علاقة الصداقة لا تزيد عن خمسة أصدقاء في المدينة التي يقيمون فيها، في حين البعض من التجّار والذي قدّر بـ: 14.6% أقر بأنّ حجم عدد الأصدقاء هو يتراوح بين خمسة وعشرة أصدقاء. هذه النسب مؤشر قوي على أن التاجر المزابي منفتح على المحلّي وهذا عكس ما يروج له محليا ووطنيا حول انغلاق المزابي على نفسه وأنه لا يؤمن إلاّ بالتجارة. "تختلف قدرة الأفراد في تكوين العلاقات الاجتماعية من حيث قوة الارتباط، ومداها وعددها ونوعها، وقد تكون إيجابية أو سلبية، وقد تكون في اتجاه واحد أو عدة اتجاهات، فالفرد بؤرة لعمليات الجذب والتنافر ما يشكل شبكة للتجاذب والتنافر في علاقات الأفراد بعضهم البعض أو الفرد بالجماعة". (خواجة، 2007، ص.51)

أما عن أسباب كبر حجم شبكة الصداقة للتاجر المزابي، فقد أقرّ البعض منهم أنّ الصداقة تعززت بسبب حل مشكل إداري بالأساس الأول؛ ويمكن تفسير هذا العراقيل التي تعترض التاجر مثل ما أكد لي رؤساء الجماعات حول مشكل صعوبة تصحيح الاسم أو الألقاب العائلية التي لها تواجد في الغرب الجزائري منذ الفترة العثمانية أو الاستعمارية حيث كانت المحكمة الأباضية موجودة في ولاية معسكر ثم تحويل مقرها إلى ولاية وهران وبعدها أغلقت المحكمة نهائيا. وهذا الواقع فرض على التاجر المزابي أن يستخدم علاقات الوساطة من مختلف ولايات الغرب عن طريق الصديق المحلّي. أما العامل الثاني في متانة علاقات الصداقة يعود إلى دور المحلّي في فض النزاعات بين التاجر وجاره المحلي، كما كان الفضاء التجاري عاملا مهما في ربط علاقات جديدة للتاجر المزابي من خلال وساطة المحلّي بإحداث توافق بين العامل المحلّي والتاجر المزابي بسبب المناوشات في إطار العمل، وهذا ما تم تسجيله في المعاينة الميدانية، أو ساعده في جلب عامل جديد يتميز بالثقة والجدية في العمل. ونجد البعض من التجار من زادت توطدت علاقته بالمحلّي بسبب استرجاع هذا الأخير سلع قد حجزتها الشرطة للتاجر قد وضعها خارج المحل، أو أنّه جنّبه غرامة مالية من هيئة الضرائب للولاية أو حتى غلق المحل بسبب تأخر في دفع الضريبة وهذا بحضورنا.

تقول مارتينا لاو" (MARTINA Löw) أنّ المجال التجاري لا يمكن التأثير في ذاته؛ لأنّه لابد له من فاعل يُشكّله، مثلما يحدث حينما نبني شكلا معينا يصبح بموجبه الخشب خزانة، أي أنّ الأفراد هم من يعطون المجال دلالته الاجتماعية؛ لأنهم يشكّلونه ليوافق غاياتهم ويُحقق مصالحهم. وهذا

يستلزم النظر إليه أولا على نحو مجرد، كونه يحيل إلى فراغ لا محدود، وأنّ الشكل الذي يعطيه الأفراد للمجال، كونهم يدركونه في الآن نفسه، يحتوى أشياء العالم بما فيه وجودهم الاجتماعي". (الخطّابي، 2021، ص.169)

إذن تتشكّل شبكة علاقات الصداقة للجماعة المزابية التجارية في المجال التجاري، حيث يمد هذا المجال جماعة التجار بشبكة معقدة من العلاقات الاجتماعية والتي ستختار منها ما يتوافق واتجاهاتها النفسية والفكرية، وبهذا الدور يتحدد شكل العلاقة الاجتماعية من خلال شبكة علاقات الصداقة للتاجر المزابي. يؤكد جورج زيمل "أنّ الدخول في علاقة مع المجال يعني إنجاز تحركات (Mouvements) وتحوّلات اجتماعية؛ لأن الأفراد يتفاعلون فيما بينهم حينما يشغلون مكانا مشتركا باعتباره وضعية مكانية (Position Spatiale) يكون فيها كل طرف في مكان ما يتحدد به ويشغله". (الخطابي، 2021، صفحة 169) فالفعل الاجتماعي عند التاجر المزابي فعل يطغى عليه طابع العقلانية والواقعية مع الآخر، ونعتقد أنّ هذه العقلانية والواقعية استمدها التاجر من طبيعة الممارسة التجارية التي تفرض منطق النفعية بين المتعاملين.

جدول 4

التاجر و مبادرته في التصالح مع الرجل المحلي في حالة الخصومة مع الرجل المحلي

التصالح مع الصديق	التكرار	%
موافق	68	69,4
موافق بشدة	27	27,6
معارض	03	03
المجموع	100	100

المصدر: نتائج البحث الميداني

تشكّل عملية المصالحة إحدى العمليات الاتصالية التي تسعى إليها الجماعات والمجتمعات للحفاظ على الروابط الاجتماعية بين أفرادها، وكما هو مبين في الجدول أعلاه فإن التاجر المزابي هو من يبادر للتصالح مع صديقه المحلّي إذا أخطأ في حقه، وبالتالي التاجر المزابي في منطقة الغرب الجزائري هو على استعداد كامل للتصالح مع أصدقاءه المحليين بنسبة 97% مقابل 3% من التجّار الذين رفضوا التصالح مع أصدقاءهم الذين تخلّوا عنهم لأسباب معينة؛ إذْ تشير هذه الرغبة الجماعية للتصالح مع المحلي إلى جدّية التاجر والتزامه بمبدأ الصداقة في الظروف الصعبة في مختلف مدن

الغرب الجزائري، من خلال رغبته لمعرفة الأسباب الرئيسة التي أدّت إلى توتر العلاقة بينهما بهدف تحقيق تفاهم جديد وتجاوز العلاقة الاجتماعية المتشنجة هذا من جهة، والحفاظ قدر المستطاع على شبكته للعلاقات الاجتماعية المحلّية التي اجتهد كثيرا في تكوينها بهدف تحيق تكيف اجتماعي مع الآخر من جهة أخرى. ويدعم هذا التحليل قول أحد التجّار المزابيين من مستغانم واسمه سليمان"لازم نحافظوا على واحد المثل اللّي يقول: إذا شفت (رأيت) زوج متفاهمين أعرف باللّي الدرك (عدم التفاهم) على واحد."

يوازن التاجر المزابي بين مبدأين وهما: مبدأ الالتزام بروابط الصداقة بالرغم من أنّ المحلّي هو المخطئ في حق زميله المزابي، والمبدأ الثاني الحفاظ على حجم علاقات الصداقة (المكتسبة) مع المحلّي التي كوّنها منذ تواجده في المدينة، فكلا المبدأين شرط استمرارهما الإرادة الواعية للتاجر المزابي بقيمة روح المبادرة في إعادة نسج علاقات الصداقة؛ ونعتقد أنّ هذا الفعل يرتبط بالصورة التاريخية التي كوّنها الجيل الأول للتجار المزابيين اللذين كانوا اشتهروا بالثقة والأمانة وكتمان السر والصلاح وغيرها من القيم التي يؤكدها التجّار بما فيهم رؤساء الجماعات في الغرب أنّها بدأت تتأثر بفعل التأثيرات الاجتماعية على التاجر المزابي المعاصر، بمعنى الحفاظ قدر المستطاع على صورة التاجر المزابي في أي مدينة من مدن الغرب الجزائري. حتى يكون هناك تمثل اجتماعي إيجابي عن التاجر في هذه المدن، وبالتالي هذا السلوك للتاجر يساعده تدريجا في تحقيق اندماج اجتماعي " (Integration Sociale) الذي يقصد به أن يكون الشخص مندمجًا في المجتمع الجديد إذا كان يجيد لغة هذا المجتمع بقدر جيد ويحترم ثقافته ولا يتعاطى ممارسات سلوكية تتقاطع مع ثقافة هذا المجتمع، وأن يشارك مشاركة فعالة في الحياة اليومية بجوانبها الاجتماعية والإدارية والسياسية. وهي معادلة تتطلب تعاون طرفيها - الوافد والمحلي- وهو يشير الى مقدار الاتصال بين الجماعات". (الهاشمي، 2008، ص.73)

3.3. الوساطة الاجتماعية للجماعة المزابية جسر اجتماعي لتجديد العلاقات الاجتماعية:

تتأثر شبكة العلاقات الاجتماعية (علاقات الجيرة، علاقات الصداقة، العلاقة التجارية، علاقات العمل) فينتج عنها علاقات اجتماعية سلبية بسبب عدم التفاهم والتوافق في الميول والتوجهات، وهذا يدفع بالفاعلين الاجتماعيين خاصة في المجتمعات العربية إلى إعادة الرابط الاجتماعي على ما كان عليه في البداية؛ أي إحداث توازن اجتماعي جديد يكون مرهون بشروط يتوافق عليها المتنازعون، ويسمى هذا الفعل الاجتماعي بالوساطة الاجتماعية والتي تعرّف على أنها "عملية

طوعية وودّية يتدخل فيها الطرف الثالث بين طرفين اثنين أو أكثر لمساعدتهم في التوصل إلى حل مرض لهم. قد يحتاج الوسيط إلى الذهاب والإياب بين الخصوم". (نصرة، بدون سنة، ص.27)

فالوساطة الاجتماعية (Mediation Sociale) هي جسر اجتماعي لإعادة ربط العلاقات الاجتماعية في المجتمع المحلّي، وهي عملية تعتمد على ذكاء الفاعل الاجتماعي وهو الوسيط الاجتماعي (Médiateur Social) الذي يطلبه أحد المتنازعين أو أن يتدخل بمحض إرادته في فك النزاع. "وهذا يعني أن أشكال الحياة الاجتماعية التي ينعتها جورج زيمل (GEORGE Simmel) بالعلاقات المتبادلة بين الأفراد، تحدث دائما في مجال معين وتوجد وحدة ناتجة من تبادل المصالح وتضاربها؛ ما يؤدي إلى صراع بين الأفراد، فيضطرون إلى حلّ النزاع عبر التفاوض وإيجاد قنوات تواصل تساعد في عقد توافق، يتوج بعلاقات تبادل جديدة وأنماط تفاعل جديدة، باعتبارها تجليا لأشكال الحياة الاجتماعية" (الخطّابي، 2021، ص.172). كما يجب أن تتوفر في الوسيط الاجتماعي الموضوعية ومهارة الاتصال بالإضافة إلى فن القيادة، ويسمى هذا الوسيط في المجتمع الجزائري " الجاه" وله مكانة رمزية في حياة الجزائريين.

لقد تمتعت الشخصية المزابية بالنفوذ الاجتماعي كوسيط بين التجار المزابيين والآخر أو بين المحليين فيما بينهم في مدن الغرب الجزائري عن طريق رؤساء هذه الجماعات التجارية. ففي مدينة تيارت على سبيل المثال لمّا كان السيد (ب. م.) مسئولا عنها سابقا يقول عن تدخله لفض النزاعات التالي: "كي كنت مسئول كنت نتوقع مشاكل مثل ما يخلصش (لا يأخذ أجرة) الخدام ولا كذا، ويجي (يأتي) المظلوم يقول لي عندك حاجة في بعض الأحيان يطلبو المستحيل يقولك راني ما خلصتش (لم آخذ أجرتي) قالو لي نتوما راكم تخلصوا (يضحك)" ويضيف "ومرة صرات لي (حدثت معي) تدخلت بين عربي وعربي على خاطر كنت أستاذ ومعروف بزاف في تيارت، ولاّ (أو) واحد يطلّق المرأة نتاعو يعيطولي ندير الصلح بيناتهم، وأنا شخصيا نعرف بلي مكانش فرق بين عربي ومزابي إلا اللغة. واحد صاحبي كان يقرا معايا فقد عقله من أعز أصدقائي مصارينو (يقصد أمعاءه) نعرفهم بينوا وبين زوجتو نعرف واش كاين (يعني يعرف عنهما كل صغيرة وكبيرة)."

"تؤدي الجماعات أو الأفراد أوجه النشاط الذي ينصرفون إليه بأقل قدر من التوتر والنزاع ويكون الفرد متكيفا مع مجتمعه عندما يشترك اشتراكا إيجابيا في نشاط هذا المجتمع، ويتبنى المثل العليا الجماعية، ويكون التكامل عادة كليا في الجماعات الصغيرة ". (برمة، 1987، ص.51)

من خلال ما تم جمعه من معلومات حول الوساطة الاجتماعية للمزابيين في مدن الغرب الجزائري، يتبين أن التاجر المزابي ساهم كثيرا في تحقيق التماسك والاستقرار الاجتماعي للجماعة المزابية التجارية وعلاقتها مع أفراد المجتمع المستقبل لها. إذْ يجب النظر إلى الوساطة الاجتماعية على أنها جسر اجتماعي يقف على طرفي علاقة الصراع الاجتماعي، وهنا يؤكد جورج زيمل قوله أنّ "الجسر يأخذ قيمة جمالية لأنه ينجز وصلا بين جزأين كانا معزولين ومنفصلين، ليس في الواقع ولأجل أهداف عملية فحسب، بل في أن يجعله فورا مرئيا ومدركا على نحو واضح. يمنح الجسر أعيننا النقطة الثابتة، وذلك بربط أجزاء المناظر الطبيعية، كما يحدث مع الأجساد الفيزيائية في الواقع العملي". (الخطّابي، 2021، ص. ص. 178،179)

وفي سؤال وجه إلى عينة الدراسة أجاب 96% من تجار بني ميزاب أنهم يقومون بفض النزاعات بين المحليين مقابل 4% من أقروا عكس ذلك. وبالتالي التاجر المزابي في هذه المدن أتقن دورا كبيرا في التخفيف من الخلافات والصراعات التي تحدث بين المحليين، وهذا يشير إلى قوة العلاقات الاجتماعية بين الطرفين التي تدفع التاجر بكونه فرد من المجتمع وجزء لا يتجزأ منه، "هناك بعض الجماعات الاثنية والدينية تتميز بقدرتها على التكيف، وهذا ما نجده عند القرج في العراق، بحيث يتميزون بسرعتهم على التكيف والاندماج بالمجتمع". (الهاشمي، 2012، ص.21)

إن تدخل التاجر المزابي في تسوية الخلافات بين المتنازعين أباضية كانوا أو مالكية يدل على مدى اهتمامه بعلاقات التفاعل في الحياة اليومية داخل المدينة، وسعيا منه في الحفاظ على سلامة البيئة الاجتماعية من الصراعات التي تضر بالأفراد والنسق الاجتماعي بصورة عامة. فالوساطة الاجتماعية التي يسعى التاجر المزابي الاعتماد عليها هي ضمان لوقت أطول المسافات الاجتماعية بين المتجاورين، ومن ثم تجديد الروابط الاتصالية في لحظة الأزمة.

4.3. الوساطة الاجتماعية للجماعة المزابية جسر اجتماعي لتجديد العلاقات الاجتماعية:

جدول 5

زيارات التاجر المزابي للرجل المحلي

الزيارات في المناسبات	التكرار	%
دائما	37	37
أحيانا	62	62
أبدا	01	01
المجموع	100	100

من خلال الجدول 62% من تجّار بني ميزاب في مدن الغرب الجزائري أحيانا ما يقومون بزيارات للرجل المحلّي في المناسبات، وتكون هذه الزيارات في الغالب في المناسبات الدينية أو المرض، مقابل 37% من أفراد العينة هم في استمرار دائم لزيارة المحلّي في المناسبات بالرغم من النشاط التجاري الدءوب للمزابي في محلّه.

وفي سؤال آخر للتاجر المزابي هل يقوم بزيارة المحلّي حتى في غير المناسبات؟، كانت الإجابات الكلّية للنسب العمودية على النحو التالي: 65% من أفراد العينة أحيانا ما يقومون بهذا النوع من الزيارات للمحلّي مقابل 28%من المبحوثين لا يقومون بهذه الزيارات في حين الذين يحافظون على زيارة المحلّي حتى في غير المناسبات لم تكن إلاّ 7%. بمقارنة دقيقة بين نسب الزيارة المُخصّصة في المناسبات ونسب الزيارة حتى في غير المناسبات نجد أنّ معدل زيارة التاجر المزابي للرجل المحلّي قد زاد بمعدل 3%، أي انتقل من 62% في المناسبات إلى 65% في غير المناسبات بصفة أحيانا، وهذا مؤشر إيجابي حيث نجد بعض تجّار بني ميزاب في الغرب الجزائري يحافظون على فعل الزيارة حتى في غير المناسبات مع الأخذ بعين الاعتبار خصائص التجارة المزابية التي تفرض على التاجر التواجد في الفضاء التجاري طيلة أيام الأسبوع ما عدا مساء الجمعة، كما يمكننا أن نفرض أنّ التواجد اليومي للتاجر المزابي في فضاء المدينة يسهل عليه يوميا الالتقاء بصديقه المحلّي أو جاره أو حتى التجّار المحلّيين، سواء كان صدفة أو بزيارة مبرمجة مسبقا، وهذا ما رصدناه في مدينة مستغانم ومدينة تيارت؛ أي أنّ التقارب المكاني من شأنه أن يزيد في عدد زيارة التاجر للمحلّي في غير المناسبات. في حين سُجل تراجع كبير في زيارة التاجر المزابي للمحلّي في غير المناسبات بمعدل قدّر 20%، أي تراجع معدل الزيارة من 37% في المناسبات إلى 7% في غير المناسبات بصفة دائمة، قد يعزى هذا التراجع إلى عدم استنزاف الوقت وتضييعه من قبل التاجر، كما ارتفعت بذلك نسبة التجّار الذين لا يولون أيّ اهتمام بزيارة المحلّي فيغير المناسبات إلى 28.%

ولمعرفة أكثر حول الرابطة الاتصالية بين الطرفين، طرحنا السؤال التالي: هل يبادلك الرجل المحلي الزيارة؟، أقرت 69% من أفراد العينة بأنّ الرجل المحلّي أحيانا ما يبادلهم الزيارات مقابل 26% منهم من صرّحوا أنّ الرجل المحلّي دائما يقوم بزيارتهم، في حين 8% فقط من التجّار من لا يبادلوهم المحلّيين الزيارة. بملاحظة دقيقة يتبيّن للقارئ أنّ نتائج زيارة المحلّي للتاجر المزابي جاءت جد متقاربة مع نتائج زيارة التاجر المزابي للمحلّي في المناسبات وغير المناسبات؛ يمكننا القول أنّ التاجر المزابي يزور

المحلّي بقدر ما يرد هذا الرجل المحلّي بزيارة أخرى له، وهو ما يمكن أن نعتبره دَيْن اجتماعي واجب على الطرفين، حيث يوجد هناك تشارك في فعل الزيارة من الطرفين بالخصوص الزيارات المتقطعة (أحيانا) وهذا ما توضحه النسب العمودية الكلّية في الجداول السابقة.

إذن فعل التواصل بين التاجر المزابي والرجل المحلّي في مدن الدراسة تحكمه معادلة التبادل المتزن بين الطرفين، وهذا وفق المثل الشعبي الذي قال عنه أحد التجار" إذا من عندي وعندك تنطبع، وإذا غير من عندي تنقطع"؛ حيث كلّما كان هناك تبادل بين الطرفين في عدد الزيارات كلّما استمر فعل التواصل وطالت مدة العلاقة الاجتماعية، وكلّما تهاون أحد الطرفين في الزيارات كلّما تأثرت رابطة الصداقة والجيرة بين الطرفين خاصة الزيارة في المناسبات (المرض، الوفاة)، بحيث هي من تحدد موقف أحد طرفي العملية الاتصالية عكس ما هو موجود خلال الزيارة في غير المناسبات، والتي لها تأثير ضعيف بمقابل الأولى.

5.3. تبادل الهدايا بين التاجر المزابي والرجل المحلي في الغرب الجزائري:

يعرف مارسيل موس (MARCEL Mauss) الهدية على أنها ظاهرة اجتماعية كلية، وهي نظام للتبادل، تبدو في ظاهرها ممارسة اختيارية، غير أنها خاضعة للالتزامات الثلاث: المنح، الاستلام، والالتزام برد العطاء. في حين عند فرانز بواس (FRANCE Boas) الهدية تدخل في إطار المبادلات غير التجارية؛ فهي عنده نوع من المبادلات (مبادلات الأشياء أو النساء) إلى جانب تقاسم الأشياء والمعاملة بالمثل وإعادة توزيع الأشياء التي هي مبادلات غير تجارية، وخارجة عن نطاق التبادل النقدي والسلعي". (عباس، 2012، ص.182)

جدول 6

التاجر المزابي وتقديم الهدايا للمحلّي خلال أيام الأفراح

تبادل الهدايا	التكرار	%
دائما	36	36
أحيانا	60	60
أبدا	04	04
المجموع	100	100

بعد قراءة الجدول يتبيّن في النسب الكلّية العمودية أنّ 60% من التجّار المزابيين في مدن الغرب الجزائري أحيانا ما يقدمون هديا للمحلّي، في مقابل 36% منهم من يقوم بتقديم الهدايا بصفة مستمرة

للمحلّي في أفراحه، أمّا الذين لا يمنحون أيّة هدية كان تمثيلهم جد ضعيف بنسبة 4%. وبلغة الأغلبية نجد 96%من تجّار بني ميزاب يقدّمون الهدايا خلال مناسبات أفراح الرجل المحلّي، وعن الهدايا التي يقدمها التاجر المزابي للمحلّي فكانت في الغالب كالتالي: المال بنسبة 51% بصفة متقطعة، المصحف الكريم 62% بصفة أحيانا والملابس بنسبة 63% أحيانا ما يقدمها التاجر، في حين لا يتعامل أبدا التاجر بالذهب كهدية مع المحلّي بنسبة 9%.

نفهم جيّدا من خلال الهدايا المقدمة أنّ للتاجر المزابي أولويات في الهدايا حيث يجعل المصحف والملابس كأولوية لرمزية الاتصال مع المحلّي، في حين يستغني التاجر المزابي في مدن الغرب الجزائري عن الذهب كهدية للرجل المحلّي؛ يمكننا أن نعزو هذا السلوك في التهادي إلى الرأس مال الرمزي المزابي المنتشر كثيرا في وادي ميزاب أثناء عملية التهادي. وبالتالي كل هدية يقدمها التاجر المزابي للرجل المحلي تحمل رسالة رمزية في التواصل، نجد مثلا أنّ التهادي بالملابس من شأنه أن يذكر المحلّي صديقه التاجر المزابي بالمناسبة في حين المصحف قد يريد به التاجر تذكير صديقه المحلّي بضرورة التمسك بالدين لأنه طريق النجاح. في حين غالبا ما يتهادى التجّار في مدن الغرب الجزائري بصور المدينة (Carte postale) التي يقيم فيها كل تاجر مع رسالة تهنئة له.

تتنوع المجاملات بين المادية والمعنوية منها وكلها تجري وفق تنظيمات وقواعد تحدد بكل دقة واجبات تقديم المساعدة ومتلقيها، كما تحدد قواعد الرد وآداب الدعوة إلى المشاركة أحيانا في مناسبات الفرح أو عدم الدعوة في مناسبات المرض أو الحزن". (الجوهري، 2006، ص.257) إذن قوّة الأشياء المتبادلة هي التي تحدّد بنية العلاقة بين الأطراف، ومن خلال الهبة المقدمة يظهر مفهوم الاعتراف المتبادل (Reconnaissance Mutuelle) الذي "يمس دائرة العلاقات الاجتماعية الأولية بالصورة التي تتميّز بها الروابط الوجدانية المتعلقة بالأطر الأسرية أو علاقات الصداقة أو المحبّة الموجودة بين الناس، وذلك لأنّ مواقف التراضي الوجدانية تفترض وجود تعاطف أو انجذاب قد يتُحكم في، وفي الوقت نفه، يصعب نقلها إراديا إلى عدد كبير من المشاركين أثناء عملية التفاعل". (بومنير، 2019، ص.15)

جدول 7

وجوب رد الهدية من قبل الرجل المحلي

رد الهدية	التكرار	%
موافق	30	31,2
موافق بشدة	02	02,1
معارض	36	37,5
معارض بشدة	28	29,2
المجموع	100	100

المصدر: نتائج البحث الميداني

إذن 66.7% من التجار يعارضون وجوب رد الهدية، مقابل 33.3% من وافقت على إلزامية الرجل المحلّي في منطقة الغرب الجزائري برد الهدية، وعلية فالفئة الغالبة في أفراد عينة الدراسة لا ترى بوجوب رد الهبة في أيّ وقت أو في أي مناسبة كانت، ويشير هذا إلى اعتبار تجار بني ميزاب على العموم الهبة وسيلة محبة واحترام وليست دين ينتظرونه، حيث يجعل هذا التصرف الرجل المحلّي في علاقة مستمرة مع التاجر ما دام أنه لا يلزمه رد الهدية، بحيث هذا الموقف يرفع التاجر المزابي إلى مستوى أعلى في الصداقة يصل إلى حد الشرف، يشير بورديو " إلى أنّ مانح الهدية يضيف إلى نفسه شرفا اجتماعيا أو رأسماليا رمزيا يتكاثر ويتضاعف، بينما رأس المال الرمزي للمُدينْ أو لمُتقبل الهدية يتناقص". (سوالمي، 2020، ص.190)

أمّا عن الجماعة المزابية الأخرى التي أقرّت بإلزامية رد الهدية، أي أنّ الهدية تبقى كدين في عنق الرجل المحلّي يتوجب عليه إرجاعها بنفس القيمة أو أكثر في مناسبات جاره أو صديقه المزابي، وبالتالي الهدية هي شكل من أشكال التفاعل الاجتماعي بين الطرفين في المدن الحضرية للغرب الجزائري. وهذا ما يؤكده جورج زيمل "إنّ تفاعل الأفراد هو من يحدّد مفهوم المجتمع من خلال عمليات القرب والمسافة الاجتماعية في الحواضر الكبرى؛ فليست المدينة بناء للسكن والطرقات والمرافق الاجتماعية والاقتصادية. بل هي كذلك بناء للعلاقات الاجتماعية بين السكان الذين يميّزهم الاختلاف والتباين". (عبد الرحمان، 2020، ص.52)

يمكننا القول تبعا للنتائج المتحصل عليها، أنّ فعل التهادي بين الجماعة المزابية والرجل المحلّي ليس إلزامي كما جاء به مارسيل موس في كتابه "مقالة في الهبة: أشكال التبادل في المجتمعات الأرخية وأسبابه" حينما كتب، "...إنّ أهم أولوياته الروحية طبعا، تتمثل في تلك التي تُجبر المرء للرد على الهدية بمثلها. وبما أنّ الموجب الأخلاقي والدّيني لهذا الإكراه أوضح ما يكون في بولينيزيا، فإنّنا سنقوم بدراسته

بصفة خاصة حتى تتبين لنا بكل وضوح ماهية القوة التي تدفع الناس إلى الرد على الهدايا المُتقبّلة بالمثل، والتي تدفعهم عموما باتجاه التقيّد بتنفيذ ما التزموا به واقعيّا". (مارسيل، 2014، ص.30) وهذا لا يعني رفض أطروحة مارسيل موس عن دور الهدية في المجتمعات البدائية وحتى الحديثة، بل هناك تباينات بين الجماعات الاجتماعية والمجتمعات المحلّية من شأنها أن تُلْزَمَ الهدية أو تجعل الأفراد يتصرفون وفق هدف الجماعة.

خاتمة:

يتميز الفضاء الاجتماعي الذي يقطنه التاجر المزابي في الغرب الجزائري بعلاقات جيرة قوية مع جيرانه المحليين مما يسمح بخلق منطقة جذب للمزابيين المهاجرين إلى هذه المنطقة من جهة، واتساع شبكة علاقات الجيرة إلى أحياء أخرى من جهة أخرى. في حين غابت علاقات الجيرة السيئة/ الضعيفة بين التاجر وجاره المحلي بسبب تغافل المزابي عن بعض المشاكل التي لا يراها ترقى إلى مستوى الاهتمام حفاظا على الرابطة الاجتماعية في الحي. وبتشكل نسق الجيرة وانتشاره في أحياء المدينة التي يقيم بها التجار قويت رغبتهم في توسيع رابطتهم الاجتماعية ببناء رابطة الصداقة مع الرجل المحلي الذي قد يكون تاجرا أو زبونا أو جاره؛ بحيث أقر كل التجار بأنهم يملكون شبكة علاقات صداقة كبيرة تتراوح بين خمسة إلى عشرة أصدقاء وهو مؤشر إيجابي في تحقيق استقرار اجتماعي له في مدن الغرب الجزائري.

ستكون علاقات الجيرة وعلاقات الصداقة للتاجر المزابي شكل من أشكال العلاقات الاجتماعية التوافقية التي أكد عليها "جورج زيمل" (GEORGE simmel) في تشكيل المجتمع عاملا مهما في نظرنا لاحتكار المجال التجاري في المنطقة الحضرية لمدن الغرب الجزائري من قبل التاجر المزابي، وهذا بتوظيف شبكة العلاقات الاجتماعية الايجابية وجعلها امتدادا مباشرا للفضاء التجاري الذي يتواجد فيه، حيث نجد المزابيين ينتشرون في شوارع المدينة الأكثر شعبية والتي لها رمزية اجتماعية للزبون المحلي حتى أصبح يطلق على هذه الشوارع "زَنْقَةْ بْنِي مْزَابْ" في غالبية مدن دراستنا.

للحفاظ على شبكة العلاقات الاجتماعية التي بناها المزابيون في الفضاء الاجتماعي والتجاري اهتموا بالتصالح مع المحليين في حالات الخصومة وعدم التفاهم لضمان استقرارهم وتواصلهم مع الآخر التزاما بمبدأ الجيرة والصداقة. كما اعتمد المزابيون في مدن الغرب الجزائري على الوساطة الاجتماعية كجسر اجتماعي لتجديد شبكة العلاقات الاجتماعية بين المحليين أنفسهم وبين التاجر والرجل المحلي وهي إستراتيجية اتصالية تساهم في ترميم العلاقات الاجتماعية المتصدعة بين الأطراف

في المجالين الاجتماعي والتجاري الذي يعتبر مورد مالي مهم لاستقرار المزابيين في منطقة الغرب الجزائري.

ومن التوصيات التي يمكن أن نقترحها هو ضرورة تفعيل المخابر العلمية في الجامعات خاصة في مجال العلوم الاجتماعية والإنسانية للاهتمام بالنشاط الاقتصادي للجماعات الاجتماعية في الجزائر، كما يجب أن توضع برامج بداغوجية على مستوى الوزارة الوصية فيما يخص تاريخ هذه الجماعات الاجتماعية ودورها في المجتمع الجزائري.

قائمة المصادر والمراجع:

1. أحمد، الخطابي. (2021) نظرية المجال عند جورج زيمل المجال بوصفه شرطا قبليا للبناء وإعادة البناء الاجتماعي. مجلة العمران،35؛
2. أحمد، سليم نصرة. (بدون تاريخ). الوساطة لتسوية النزاعات المدنية في القانون الفلسطيني. [ورقة مقدمة إلى مؤسسة تعاون لحل الصراع] مؤتمر الوساطة الأول، الضفة الغربية. فلسطين؛
3. الزهرة، عباس. (2012). الهدية بين الرابطة الاجتماعية والمنفعة الاقتصادية. مجلة العلوم الاجتماعية، الجزائر، (العدد6)،
4. بركات، نوال. (2006). [انعكاس استخدام مواقع التواصل الاجتماعي على نمط العلاقات الاجتماعية] . أطروحة دكتوراه، جامعة بسكرة، الجزائر؛
5. حميد، الهاشمي. (2008). العرب وهولندا: الأحوال الاجتماعية للمهاجرين العرب في هولندا. مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت؛
6. حميد، الهاشمي. (2012). تكيّف الغجر دراسة اجتماعية أنثروبولوجية لجماعات الكاولية في العراق. (ط1)، دار المدي، بغداد؛
7. رشيد، حمدوش. (2009). مسألة الرباط الاجتماعي في الجزائر المعاصرة امتدادية أم قطيعة. دار هومه، الجزائر؛
8. زريبي، نذير. (2013). الوجيز في علم الاجتماع. القاهرة؛
9. زيدان خلف الجبوري، علي. (2006). [التبادل وأثره في تعميق العلاقات الاجتماعية]. أطروحة دكتوراه، جامعة بغداد. العراق؛
10. عبد الرحمان، رشيق. (2020). السياسة العمرانية والعلاقات الاجتماعية في المغرب. في المدينة العربية تحديات التمدين في مجتمعات متحولة. (ط1)، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات. بيروت؛
11. عبد العاطي، السيد. (1990). علم الاجتماع الحضري. (ج1)، دار المعرفة الجامعية، مصر؛
12. عبد العزيز ،خواجة. (2007). أنماط العلاقات الاجتماعية في النص القرآني. دار صفحات للدراسات والنشر، سوريا؛
13. عمر، برامة. (1987). [التغيير الاجتماعي المخطط أو التنظيم الاجتماعي الموجه في الجزائر]. أطروحة دكتوراه، جامعة الجزائر، الجزائر؛
14. فيبر، ماكس. (2011). مفاهيم أساسية في علم الاجتماع. ترجمة صلاح هلال. (ط1)، المركز الثقافي الألماني، القاهرة؛
15. كمال، بومنير. (2019). سؤال الاعتراف: في الفلسفة الاجتماعية والسياسية المعاصرة. (ط1)، دار ميم للنشر، الجزائر؛
16. محمد وأبو نصّار، محمد، عبيدات. (1999). منهجية البحث العلمي: القواعد والمراحل والتطبيقات. (ط2). دار وائل للنشر، عمان؛
17. محمد، الجوهري وآخرون. (2006). الأنثروبولوجيا الاجتماعية قضايا المنهج والموضوع. دار المعرفة الجامعية، مصر؛
18. موس، مارسال. (2014). مقالة في الهبة: أشكال التبادل في المجتمعات الأرخية وأسبابه. ترجمة محمد الحاج سالم، (ط1). دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان؛
19. نورية، سوالمي. (2020). واقع الجوار في المدينة الجزائرية: دراسة حالة مدينة أرزيو، المدينة العربية تحديات التمدين في مجتمعات متحولة. (ط1)، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات،بيروت؛
20. DJEMAA Mechakra-Tahiri Samia .(2008)[.Relations sociales et troubles dépressif chez les personnes âgées au Québec]. Thèse de doctorat, Université de Montréal, canada ;
21. GOICHAN A. Mélie .(1927) .La vie Feminine au M'Zab .Paris: (T 1) librairie orientaliste. Paris ;